النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت Frank furt School

تمهيد:

مدرسة فرانكفورت أو ما يعرف بالنظرية النقدية أو النظرية النقدية للمجتمع أو نظرية المجتمع النقدي، هي إحدى النظريات النقدية السوسيولوجية الكلاسيكية التي ظهرت مع البدايات الأولى من القرن الماضي (العشرين)، وما زالت أفكارها تغذي الكثير من النظريات السوسيولوجية المعاصرة، سواء كانت محافظة أو تتبنى مدخل الصراع والمداخل المعروفة بالمداخل النقدية الراديكالية، والتي تنظر إلى التغير من وجهة نظر متباينة عن النظرية الكلاسيكية. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 424)

الجذور الفكرية والإيديولوجية للنظرية النقدية:

– العودة إلى الفكر المثالي حيث جاءت أفكار رواد مدرسة فرانكفورت لتعيد دراسة النظرية الماركسية وما تبنته من أفكار، خاصة تصورات هيجل المثالية والنظرية التشاؤمية عند شوبنهاور.

– لم توطد النظرية النقدية علاقتها فالفكر المركزي بل سعت إلى تحليل الأسس والقواعد العامة التي انطلق منها هذا الفكر، ما جعل رواد مدرسة فرانكفورت ينظرون إلى الماركسية على أنها امتداد عصر التنوير، وانتقدتها في عدد من القضايا منها تصوراتها المادية للمعرفة وترفض أولويتها للوعي، كما ترى الماركسية إمكانية إدراك الحقيقة من خلال الممارسة والجهد المادي، لكن تؤكد النظرية النقدية على وجود موقف تأملي خالص في مواجهة الحقيقة.

أيضا تؤكد الماركسية على أن التحول من الرأسمالية للاشتراكية لا يمكن إلا بوجود طبقة البروليتاريا الثورية، التي تستطيع أن تدير النظام السياسي والمادي للرأسمالية مع ضرورة المحافظة على وسائل الإنتاج باعتبارها عنصر التطور والتغير، بينما ترى النظرية النقدية أن الشر الحقيقي يكمن في التنظيم أو الجهاز التكنولوجي باعتباره أحد وسائل القهر الذي

يستخدم سلبيا لتدمير الحضارة والعلم، كما رأت الماركسية أن الثورة هي وسيلة التحرير أما النقدية فتؤكد على أن العقل هو وسيلة التحرير.

– انتقدت النظرية النقدية أيضا النظرية الوضعية أو البنائية الوظيفية الكلاسيكية التي ظهرت قبل نشأتها أو التي عاصرتها، ومن هذه الانتقادات أن هذه الأخيرة جاءت لدراسة المجتمع من منظور بسيط وجزئي دون إدراك الرؤى الشمولية الطبيعية للمجتمع وهذا ما تبنته النقدية.

كما أكدت النظرية النقدية على أهمية عدم الفصل بين العلم والفن ودراسة المجتمع القائم على التأمل، وهذا ما أغفلته النظريات الوضعية أو الوظيفية، كما تجنبت علم النفس في دراسة الظواهر الاجتماعية لكن النظرية النقدية اهتمت بالجانب السيكولوجي، أيضا في النظريات الوضعية الوظيفية العقل الأدائي ركز على عالم المظهر أما العقل الموضوعي للنظرية النقدية ركز على عالم الجوهر.

أكدت النظريات الوظيفية الوضعية على أن البشر مجرد أشياء لا حول لهم ولا قوة في مواجهة المجتمع، بينما تؤكد النظرية النقدية على أن العلاقة بين الفرد والمجتمع واعتبار كل منهما ذو طبيعة مستقلة وغير خاضعة للأخرى.

– خبرات الواقع المؤلم إذ تعكس طبيعة الخبرة الواقعية والظروف الاجتماعية والسياسية لمعظم رواد النظرية النقدية جزءا كبيرا من مكونات هذه النظرية، وهذا ما جعلها تتبنى الاتجاه التشاؤمي في رؤيتها للحقائق والمشكلات الواقعية التي عصرها في العقود الأولى من القرن الماضي، فلقد عاصر معظم روادها الاعتقال الجماعي لليهود من قبل النازية الألمانية والإبادة لهم وتعرضهم للهجرة الجبرية والنفي السياسي والمشكلات التي تعرضوا لها في بلاد المهجر.

كما اهتمت كتابات رواد النظرية النقدية بدراسة طبيعة التحول الذي حدث في ألمانيا خلال حكم النازية وتغير الرأسمالية الألمانية من الرأسمالية الليبرالية إلى الرأسمالية الاحتكارية.

إن الظروف السياسية الألمانية أثرت على اليهود وخاصة المثقفين منهم، لا سيما أن معظم رواد هذه المدرسة كانوا من اليهود الذين حاولوا تحويل هذه الوقائع الأليمة إلى وقائع تاريخية وفلسفية وإنسانية عامة، ويجسدون أن اليهود الشهداء الحقيقيين للبشرية في العصر الحديث أيضا سعت إلى الاستفادة من الخبرة المؤلمة والسعي لعدم تكرارها.(عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 425، 431)

تعريف النظرية النقدية:

سميت النظرية بهذا الاسم لتركيز أصحابها أولا على نقد أوجه من المعرفة ومناهجها خاصة الوضعية منها ومن ضمنها الحتمية الاقتصادية، وثانيا لما واجهه أصحابها من نقد للمجتمعات الحديثة التي اتسمت بالهيمنة على الفرد اجتماعيا وثقافيا وبما تكون فيها من سلطات مركزية مهيمنة.

كما عرفت بمدرسة فرانكفورت التي نشأت عام 1923 كمعهد جامعي للأبحاث في جامعة فرانكفورت بقيادة جرونبرغ وتبلور التوجه المعرفي والمنهجي بشكل واضح عام 1930 بعد تولي ماكس هور كهايمر القيادة في 1924، حيث ضمت مجموعة من الباحثين في تخصصات مختلفة من أبرزهم أدرنو، وماركيوز أوفروم وهبرماس.

رغم وجود بعض الاختلافات البسيطة بين كتابات أعضاء المدرسة إلا أنها اتسمت بمواقفهم ضد الاستعمار والاستغلال العالمي والطبقي والاستبداد والهيمنة التكنوقراطية والبيروقراطية، والعمل على تحقيق حرية الرأي والتجمع وإنهاء مظاهر الاستغلال على مستوى المجتمع والعالم، وتعتبر إسهامات أعضائها النظرية والمنهجية محاولات لإعادة بناء النظرية الاجتماعية بالتركيز على مقاربة المفهوم للموضوع والنظرية بالواقع خاصة ما يتعلق بالمجتمعات الحديثة. (إبراهيم عيسى عثمان، 2008، ص 181)

مراحل تطور النظرية النقدية:

المرحلة الأولى (1921 – 1928): ترأس المجموعة كارل جرونبرج الذي كان مقتنعا بأن المجتمع الحديث يشهد تحولا من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ومن ناحية المنهجية يؤكد على التفسير المادي للتاريخ، فالظواهر الاجتماعية ما هي إلا انعكاسات للحياة الاقتصادية كانت إدارية دكتاتورية، حيث يرى لا يمكن مشاركة الإدارة من الأشخاص ذو مداخل منهجية متباينة كما لم يهتم بالبعد السيكولوجي في التفسير، تميزت معالجة القضايا خلال هذه المرحلة بالطابع الإمبريقي وهو المفضل عند جرونبرج.

المرحلة الثانية (من 1920 إلى منتصف الثلاثينيات): تولى إدارة المعهد ماكس هوكايمر وقد اختلف عن سابقه فيما يتعلق بطبيعة الموضوعات التي ينبغي التصدي لها بالبحث والدراسة، ومن الناحية المنهجية فقد نفى الديكتاتورية المنهجية لجرونبرج مؤكدا أن المنهج ينبغي أن لا يكون الهيليجية الفجة التي ترى أن الروح هي أساس العلم والتاريخ، ولا الماركسية المتطرفة التي ترى أن النفس البشرية والقانون والفن والفلسفة ليست إلا مجرد انعكاس للاقتصاد، وأن المنهج الموصى به ينبغي أن يستوعب التفاعل الجدلي بين الحقيقة المادية والحقيقة العقلية، إضافة إلى مطالبته بالعودة إلى ما قبل التخصص في دراسة القضايا.

ومن أهم انجازات هذه المرحلة الاستعانة بوسائل البحث المتقدمة التي استعملت في أمريكا، ومن ملامح هذه النظرية بداية الانفصال عن النظرية الماركسية والتأكيد على المتغيرات الاقتصادية والسيكولوجية والثقافية. كذلك السعي إلى الالتقاء بعلم الاجتماع البرجوازي من خلال الاستفادة من مناهج البحث في أمريكا واستيعاب متغيرات غير الماركسية، كالمتغيرات الثقافية والنفسية والعمل على تأسيس بحث اجتماعي تشارك فيه أنساق معرفية متباينة.

المرحلة الثالثة (من منتصف الثلاثينات إلى 1949): وهي فترة المنفى أو المأساوية للمدرسة، حيث كانت الهجرة من ألمانيا إلى أمريكا في فترة النازية التي كرهت علم الاجتماع، باعتباره العلم الذي يكشف الخرافات الاجتماعية، وتم إلغاء البحث الإمبريقي بتوجيه سياسي، وفي نهاية هذه المرحلة اتجهت جماعة المدرسة النقدية اتجاهات متنوعة في المنفى الأمر الذي اعتبره هربرت ماركيوز خيانة لمعتقدات الجماعة، ومن ملامح هذه المرحلة الانفصال التام عن النظرية الماركسية والتصدي للفاشية والنزعة المضادة للسامية والتحيز.

المرحلة الرابعة (من 1950 إلى نهاية الستينات): تميزت بعودة معظم مفكري الجماعة إلى ألمانيا، ومن ملامح هذه المرحلة ظهور مجموعة جديدة من التفاعلات الواقعية حيث ظهر اتجاه يركز على الثروة ووسائل الإنتاج الذي تزامن مع الوفرة التي تعيشها المجتمعات الرأسمالية، مما قطع الطريق أمام إمكانية قيام الثورة الاشتراكية، ومن ناحية أخرى الدور الذي لعبته البيروقراطية السوفياتية وحياة الرعب التي انتشرت في المرحلة الستالينية في الاتجاه السوفياتي، حيث هاجم هوركهايمر النزعة التسلطية التي بدأت تسود المجتمع.

أدى التوجه إلى حل مشكلات المجتمع إلى استهلاك طاقة الباحثين مما قلل من أعمالهم العقلية والنظرية، كما أدت سنوات الحكم النازية 12 سنة إلى خلق فجوة في الحياة الأكاديمية والانعزال عن التطورات العالمية، وافتقاد التراث الامبريقي واستمرار كراهية المسؤولين لعلم الاجتماع. (زولتان تار، 2004، ص46، 53)

تقييم النظرية النقدية:

لقد أثرت هذه النظرية في تطوير علم الاجتماع وعلى غيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية والثقافية على المستوى النظري والمنهجي، لكنها كغيرها من النظريات تعرضت للعديد من الانتقادات من أهمها:

– جاء نقدها للبنائية الوظيفية (الوضعية) والماركسية كما لو أنهما نظريتان متحدتان إيديولوجيا وفكريا بعيدا عن معرفة الأساس الفكري والإيديولوجي الذي انطلقت منه كل نظرية على حده.

– جاءت وجهات نظر روادها بصورة مجردة وسطحية في كثير من الأحيان حيث كانت دراساتها للمجتمعات الغربية فقط دون الأخذ بعين الاعتبار اختلاف النظم الاجتماعية بمرور الوقت ومن مكان لآخر، مما جعلها بعيدة عن الواقع والصدق التاريخي.

– عكست تصورات النظرية النقدية النزعة الألمانية المثالية (الهيليجية) لهذا جاءت أفكارها ذات طابع تأملي فلسفي كما ينطبق ذلك على أفكار الماركسية التي قامت بنقدها وتحليلها.

– إتسمت النظرية النقدية بالتفاؤل تارة وبالتشاؤم تارة أخرى ما جعلها تفقد مصداقيتها وصعوبة الوصول إلى القوانين العامة للمجتمع.

– لم تعط النظرية النقدية بديلا واقعيا للنظام السياسي في المجتمعات الرأسمالية أو الشرقية الماركسية وكانت تتأرجح بين تبني العقل والثورة والفئات المحرومة ودورها القيادي.

– لم توظف أسلوب النقد كطريقة للتفكير والتطور بصورة عملية وفهم الواقع فهما كاملا.

– جاءت بالقول بضرورة عدم الفصل بين علم الاجتماع والفن وهذا شيء مبالغ فيه وغير واقعي، ما يفقدها طابع الموضوعية والأسس العلمية والمنهجية عند التمييز بين طبيعة علم الاجتماع كعلم وبين الفن كنتاج للإنسان فقط.

– ظهرت الكثير من تصوراتها بصورة فلسفية مجردة وازدواجية في المواقف التي ناقشتها، كما كانت تأمل في خلق مجتمع إنساني يقوم على الوفاق والتكامل بين الإنسانية والمجتمع، وهذا ما يعتبر وفاقا مستحيلا. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 465، 466)